

مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير وحديث البشير النذير □ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين □

الآية : {ليس} □□

مثل هذا اللفظ مما افتتحت به بعض سور القرآن للعلماء فيه طريقان: الأولى أنه لفظ له معنى يعلمه الله فهو من المتشابه الذي لا يعلمه الراسخون، وإن ما يؤمنون به ويردون علمه إلى عالمه.

سؤال وجوابه: القرآن أنزل للبيان، ولما بيان لما بالإيهام. فكيف يكون في القرآن لفظ لا يفهم له معن □□ والجواب: أن عدم فهم معنى من بضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما أنزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام وغيرها من مقاصد القرآن.

توجيه وتنظير: إن الله تعالى أعطانا العقل الذي به ندرك الآيات التي نصبها لنستدل بها على وجوده و وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته. وبالنظر في هذه الآيات نصل - بتيسير الله - بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة، وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها. وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليه أزمان وهو ... من المحال. ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له في أحقابها الماضية على بال.

غير أن استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية - على نفاستها وعظيم نفعها - محفوف بخطر الإعجاب بذلك العقل حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، أن مدركايتها يقينيات بأسرها فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات فيحسب ان لا شيء بعدها وقد يخرج إلى إنكار خالقها، ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها. فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده وينتهي إليه ليسلم من هذا الخطر - خطر الإعجاب بالعقل. ففي آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها وقد تشهد آثارها ولما تستطيع أن تعرف كنهها، كحقيقة الكهرباء في الكون، وحقيقة الروح والعقل في الإنسان. فمثل هذه الحقائق المغلقة التي يرتد عقل الإنسان إليه عنها خاسئا وهو حسير - هي التي تعرفه بقدره ويعظمة هذا الكون وفخامة أمره، فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة ومنته المسابغة دون خلط للأوهام بالحقائق ولما فتنة بالمخلوق عن الخالق.

هذه الحقائق التي خفيت □□ على العقل البشري فلم يدرك كنهها لم تقدح في دلالة آيات الأكوان على ما دلّت عليه من وجود الخالق و وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته، وفضله وإحسانه ورحمته، فكذلك لم تقدح في بيان القرآن ودلالته آياته خفاء معاني بضع عشرة كلمة من كلماته، وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية إيقاظا للعقل عند حده وتعريفا له بقدره، وتنبهها له على عظم آيات ربه - كذلك كان خفاء هذه المعاني في الآيات القرآنية لثقل ذلك. ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية في هذا الجلاء العام والخفاء الخاص جملة من الأحكام كعدد الصلوات والركعات والمسجديات التي خفيت على العقول حكمتها وقد ظهرت المحكم الكثيرة الجليلة في سائر أحكام الشريعة غيرها. ولم تقدح في حكمة الشريعة في أحكامها بخفاء ما خفي في بعضها كما لم تقدح خفاء ما خفي من حقائق الآيات الكونية ومعاني الآيات الكلامية في دلالتها وبياناتها، والحكمة هنا في هذه الأحكام هي الحكمة المتقدمة فيهما.

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية والأحكام الشرعية في هذا الخفاء الجزئي تصرفات الله في خلقه بمجاري أقداره فقد تظهر حكم الله فيها وقد تخفى، وقد تخفى دهرًا وتظهر بعد مدة. وقد نبهنا الله على هذه الحقيقة بما قص علينا في قصة يوسف عليه السلام وما كان مجهولًا من حكم قدر الله في مبدأ أمره وما ظهر من تلك الحكم الباهرة للقدر في آخر أمره وبما قصه علينا في قصة أم موسى لما أوحى إليها يقذفه في الميم وعدم الخوف عليه وما كان من عواقب أمره، وكما لا ينفي الحكمة عن تدبير الله عدم ظهورها كذلك لا ينفي الحكمة عن شرعه عدم فهمها ولما يقدر في دلالة الآيات وبيانها عدم إدراك كنهها أو عدم فهم معناها.

ففي خلق الله وفي شرع الله وفي قدر الله وفي كلام الله ما يخفى على العقول إدراك حقيقته أو حكمته، أو معناه لطفًا من الله بالإنسان وتبنيها له، وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف، وتجلت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر فثامن بوجود مثلها فيما خفي، إذ الرب الحكيم الرحيم لا يكون منه إلا ما هو حكمة وفيه نعمة فكان الإنسان في القسم الأول مدركا مستدلا معتبرا قد استعمل عقله فأداه إلى الإيمان واليقين فيما ظهر وكان في القسم الثاني مصدقا مدعنا لربه صاغرا، قد أدرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر، فجمع بين النظر والاستدلال والتسليم والإذعان.

فهذا توجيه وجود لفظ لا نفهم معناه من كتاب الله - عند من يقول به - ببيان حكمته، مع تنظيره بمثله في خلق الله وشرعه وقدره.

بناء العمل على هذا العلم

قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع والمقرآن مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن إدراكه ما هو إلا مثل ما عرف في كمال الحق والحكمة والنعمة، إذ الجميع - ما عرف وما عجز عنه - من إله واحد حكيم خبير رحمان رحيم.

فليذكر الناظر في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة: وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة. فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعية موضع اليقينيات سببا في صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل. ويكون عمله في قدر الله هو الاعتبار في تصاريف القدر، والاعتاض بأحوال البشر واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة. فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة وإحسان ورحمة، فليذكر عجزه وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت ثم ظهر له فيوقن أن هذا مثله وأنه إذا طالبت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه رادا علمه إلى الله تعالى مفوضا أمره إليه ويكون عمله في شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الأحكام وحكمها والعقائد وأدلتها والآداب وفوائدها والمفاسد وأضرارها، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدرك علمته ذكر عجزه فوقف عنده فلم يكن من المرتابين ولما من المتكلفين ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبيين وجه ذلك القليل عن المضي في التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتبنياته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها وما جاء من التفاسير المأثورة وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم المشهود لهم بذلك من أمثالهم. فإذا وقف أمام المتشابه رده إلى المحكم، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من معنى وقال: الله به أعلم. فهذا السير النظري والعمل العلمي المبني على اليقين يعدل الخالق جل جلاله وحكمته ورحمته في خلقه وقدره وشرعه وكلامه ومعرفة العبد بقدره ومقامه يزداد السائر على مقتضاه إيمانا وعلما وفوائد جمّة ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة. وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه: {آمنًا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الأبواب}.

المقول الثاني

في فواتح المسور

وذهبت جماعة من أهل العلم من السلف والخلف إلى أن هذه الفواتح قد فهمت العرب المراد منها ولذلك لم تعترض على البيان بها ولما طعنت في عربيته بعدم فهمها وإن كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذي فهمته منها وممن ذهب إلى ذلك الإمام أبو بكر بن العربي فقال في كتاب (المقبس على موطأ مالك بن أنس): (وليس من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فإن محمدا صلى الله عليه وسلم لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك من أقوى أسبابها في الطعن عليه، وكانوا يقولون: هذا يتكلم بما لا نفهم وهو يدعي أنه بلسان عربي مبين. وما (حم عسق في اللسان)؟ وما (كهيعص) في الكلام؟ فدل أن هم فهموا الغرض وعرفوا المقصود.)

اختلاف المتأولين

منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح وذكرت له معنى واختلفوا في تلك المعاني التي ذكروها، وهي كما ذكر الإمام ابن العربي: (لا سبيل إلى تمييز واحد منها بدليل لأنّه معدوم، ولما بائن لأنّه غير منقول) ولما تطمئن إلى شيء منها المقلوب التي عاشت على اليقين، ولما تسلم واحدا منها العقول التي اعتادت قفو العلم على زور الدليل.

ومنهم طائفة أخذتها كلّها بوجه واحد فقال بعض: إنّها حروف تنبيه تفرع الأسماع فتلفت السامعين إلى الاستماع والتدبر لما اشتملت عليه السورة من الأحكام والعقائد والآداب وغيرها من مقاصد القرآن فهي نظير إلهاء في مألوف الاستعمال. وقال بعضهم: إنّها حروف تعجيز وإضحام وتقرّيع لأنّ القرآن الذي عجزوا عن معارضته، من هذه الحروف وأخواتها تركبت كلماته فكأنّ ما يقال لهم: ما هذا الذي عجزتم عنه إلا كلام من جنس كلامكم، وما ركبت كلماته إلا مما ركبت منه كلماتكم. وهذا لعجزهم أفضح ولتقرّيعهم أوجع. وممّا يؤيد هذا أنّ أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته مثل قول الله تعالى: (ألم ذلك الكتاب لا ريب) (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب الآية، ألمص كتاب أنزل إليك) (ألمر تلك آيات الكتاب الحكيم) (ألمر كتاب أحكمت آياته) (ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وغيرها.

المفائدة العلمية

قد افتتحت هذه المسور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه وجاءت أول سورة من بعد الفاتحة مفتوحة به فلتكن عند قراءته في انتباهه، وإقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه، فإنّ المتالي للقرآن والسماع له في حضرة الرب على بساط القرب، والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب، ومن قل أدبه في مقام الإحسان والكرامة استوجب أضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة وتعرض لموجبات الحسرة والندامة. فالله نسأل أن يجعلنا من قرائه على انتباهه واستحضار آلاء الليل وأطراف النهار العاملين به بالمشي والابتكار، إنه الجواد

الكريم الستار.

□ □ □ □

[1]: مجلة الشهاب الجزء الاول من المجلد العاشر.